مسؤولية الاستشراق

قراءة في كتاب « الاستشراق »
لالستاذ : ادوارد سعيد
بلتتاون بوكس – نيويورك ١٩٧٨

د . حارث صلايجتيش
جامعة برشتينا
قسم الاستشراق

يبدو أن الغرب في حاجة الى شيء جديد للوصول الى الادراك الحقيقي لما يجري في منطقة الشرق الاوسط وما حولها من احداث وتغييرات جذرية نتيجة لتراكم عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية تاريخية . ان الحروب بين العرب والقوى الصهيونية ، والثورة الايرانية ، وسلسلة الاحداث في الاونة الاخيرة ، الحت على ايجاد تعليلات واقترابات تختلف اختلافا كليا عن التي من قبل ، تفاديا للاضرار المادية والمعنوية التي تلحق بالغرب يوميا ، خاصة وان سياسة تأييد النظام الاسرائيلي . الذي اخذ طابعا رجعيا فاشيا متطرفا ، أصبح مسئولية بدات بعض الدول الغربية ترفضها رفضا نهائيا . يعني ان التحول المفروض في موقف الغرب نحو

الشرق ، ان صح التعميم ، لا تنقصه الاسباب السياسية العملية بل قاعدة نظرية أخلاقية جديدة . فاذا كان لابد للتواجد الغربي في هذه المنطقة في الماضي من قاعدة نظرية اخلاقية اختلقت منها مبررات سياسية واجتماعية معينة ، فان هذا الامر في الحاضر اصبح ضرورة ملحة يعقدها هذا العامل التاريخي الجديد الذي لم يكن يقف امام الغرب ايام الاستعمار ، وهو توازن القوى بين القوتين الكبيرتين ودور دول عدم الانحياز الذي يزداد اهميته يوما بعد يوم .

ان الجهة العلمية التي كانت تتقدم في الماضي بالتبريرات والتعليلات النظرية لما قام به الغرب ، وهو علم الاستشراق بما له من فروع واشكال ، اصبحت عاجزة على ان تقوم بدورها تحت ظروف مغيرة تفتقر فيها الى التفوق الغربي فصار جمودها وقصورها الذاتي المنبثق من التحيز وعدم مراعاة الواقعية العلمية بمثابة رد فعل يصعب على الاستشراق التخلص من نتائجه .

فكيف اذا تحول هذا الجهاز العلمي الهائل من موضع التفرض والسلبية وقد ساهم في عمليات الاستعمار والامبريالية بل استهلها ولقن مبادئها ، الى قوة علمية الى التعارف والتقارب بين الشعوب لتجنب الحروب وسيطرة مجموعات من الناس على غيرها من البشر ؟ من البديهي ان هذا التحول لايكون الا باجراء تغييرات جذرية فعالة في علم الاستشراق من حيث الهدف ومبدئه العلمي كذلك وهذا يعني تحليل ما ورثه الاستشراق من الضعف والقصور بكل صدق بعيدا عن التحيز والحل الوسط والخلفيات السياسية .

لاشك أن القيام بالعملية الجراحية هذه على جسم علم الاستشراق يشترط فيمن يقوم بها صفات التحمس العلمي الصادق والاستقلال العقلاني الفريد ، اضافة الى المقدرة العلمية المتفوقة . فلا عجب اذا ان العملية هذه أجلت الى يومنا هذا . اذ أن تلك الصفات نادرا ما تتواجد في شخص واحد ، والجدير بالملاحظة هنا ان هذا الشخص هو عربي فلسطيني، الاستاذ ادوارد سعيد، استاذ اللغة الانكليزية بجامعة كولومبيا بنيويورك ، أحد ابرز نقاد الادب في الولايات المتحدة الامريكية . ان كتاب

« الاستشراق » للاستاذ ادوارد سعيد هز اسفل اسس ذلك الاستشراق السلبي المتحيز الذي لم يكن يهدف عكس الحقيقة العلمية فحسب ، بل دفع عجلة الاستعمار ، وانضم الى قوى الاستغلال حتى وصل بها الى مرحلتها الحالية في صورة الامبريالية الجديدة والصهيونية العالميـة . لانقصد بهذا جميع من اشتغل بالاستشراق ، فان الاستاذ سعيد ذكر ما يكفي من الاستثناءات ، ولا نقصد المستشرقين الغربيين فقط بل جميـع الذين تأثروا بافكار الاستشراق ومواقفه السلبية التي تهـين الانسان وتجرده من كرامته لانه ، كما يقول الاستاذ سعيد معبرا عن الفرق بين الاستشراق الفرنسي والانكليزي ، اذا كانت علاقة ما مبنية على القـوة فان الفرق في التطبيق والاسلوب فقط .

ان كتاب « الاستشراق » عمل علمي لامثيل له في تاريخ دراسـات العلاقات بين الغرب والشرق في العصر الحديث ، تعددت وتمازجت فيه المعاني ووجهات النظر والمواضيع وذلك كله على اعلى المستويات العلمية ، عليه فلا يمكن تقديم او وصف ما احتوت عليه هذه الدراسة على بضعـة صفحات ، وقد اهتمت بذلك بعض المجلات العلمية ، وانما اردنا ان نشير اشارة سريعة الى بعض جوانب قضية الاستشراق والتي تناولها الكتاب او اثار التفكير فيها والتي تتعلق على وجه الخصوص بالقضية العربية .

سبق أن اشرنا الى دور الاستشراق في تكوين القاعدة النظرية للاستعمار الغربي بمعنى ان المواقف التي اتخذها الاستشراق ليست نتيجة الاستعمار بل بالعكس هي أحد اسبابه ومبرراته . وما دور الاستشراق في العـصر الحديث الذي نقلت فيه مراكزه الرئيسية من اوربا الى امريكا بعد الحرب العالمية الثانية حيث أخضع الاستشراق لتغييرات ادخلها فيه مدرسة أو مذهب علم الاجتماع الامريكي الحديث ؟ الحقيقة هي ان الاستشراق بعد تجاوز مرحلة التحول هذه وتهيئتـه لمقتضيات المفهوم العلمي الامريكي الحديث ، ظهر مكسرا الى اجزاء عديدة تحتفظ كل منها بجـوهر روح الاستشراق (الاستشراق ص ٢٨٤) وظل اداة الدعاية المعادية لشـعوب الشرق . واذا تساءلنا لماذا هذا الموقف المعادي عبر تاريخ علم الاستشراق

وجدنا جوابا بسيطا وهو ان عددا كبيرا من المستشرقين يتخذ نحو موضوع بحثه موقفا معاديا مسبقا او يتناوله على الاقل بشيء من التفرض فهكذا نجد عددا من المستشرقين يبذلون قصارى جهدهم باحثين عن نقص في الموضوع الذي اختاروه للدراسة ، ولعل هذه الظاهرة من نوع فريد بين العلماء على اختلاف اختصاصاتهم ، حيث ان الامر المتوقع والطبيعي ان يحب العالم موضوع بحثه . وسبب ذلك أن هؤلاء لم يتمكنوا من التجرد عما ورثوا من عقلية بيئاتهم فيشرعون في دراسة الشرق والحكم السبقي يلطخ ابصارهم ويمنعهم بالتالي من الوصول الى الحقيقة العلمية، وقد اشار الاستاذ سعيد الى هذه الظاهرة واثبتها باكثر من مثال ومن بين الاسماء المذكورة اشهر اسماء الاستشراق G. Von Grunebaum, I. Golazi-her , C. Becker , S. Hurgonje وغيرهم (الاستشراق ص ٢٠٩ و ٢٣٧ و ٢٩٦) ونحن بهذا الصدد نكتفي براي C . Becker وهو يعبر عن خلاصة نتائج دراساته الشرقية قال ان النتائج التي وصل اليها من خلال عمله « أثبتت رايه الديني عن الشعوب الشرقية » . (الاستشراق ص٢٠٩)

ان هذا المنطلق اللاعلمي تترتب عليه أخطاء متعلقة بسلوك المنهج العلمي والمنطقي السليم ، منها ان يعطي المستشرق لنفسه الحرية الكاملة في تطبيق معايير القيم الغربية عند تقييم الحضارات الشرقية ويعتبر نفسه ممثلا لتلك الحضارة المتفوقة وبالتالي يكون هو محرر البحث لا موضوع دراسته ويحصل عكس المطلوب وهو ان يعبر الشرق عن وجهات نظر المستشرق وآرائه . وتتم هذه العملية بأن يتناول المستشرق موضوعه مجملا فيطبق معلوماته ومعاييره على الشرق عامة ويظهر الشرق عبارة عن تعميمات لاتطابق الواقع بل الصورة عن الشرق في مخيلة المستشرق . وأما ان يتناوله مفصلا فيتجول عبر آلاف السنين من الحضارات بكل الحرية والسهولة ينقي التفاصيل المفضلة والاجزاء الغائبة لتركيب الفسيفساء مهملا قرائن الموضوع فيظهر الشرق بطبيعة الحال ساكنا متحجرا في ماضيه يواجهه المستشرق او الغرب المتحرك النشيط .

والذي يهمنا في اطار حديثنا عن مسئولية الاستشراق هو ان الاستشراق ، مع وضوح فشله من حيث المفهوم العلمي المعترف به ونتائجه

على الطبيعة كذلك ، اثر تاثيرا قويا على الراي العام الغربي ونقش في اذهان الغربيين فكرة عن عالم متاخر مخيف يصلح للاستغلال . ولكي يؤدي مهمته هذه كان لابد للاستشراق ان ينزل من قمته الاولمبية وان يظهر مجردا من رقة التعبير والمعاني المختبئة والمستعارة التي لاتهتم بها اذاعات التلفزيون او الشركات السينمائية والصحف . والامثلة كثيرة ... من هو العربي مثلا بالنسبة للامريكيين العاديين اليوم ؟ انه « في الحقيقة سادي منحط واطي محب للعنف والكذب والخضعة » (الاستشراق ص ٢٨٧) ، هو مرهب اليهود وقاتلهم ومهدد السلام العالمي ومخرب اقتصاده ليس لديه من صفات اخلاقية ما يؤهله لامتلاك تلك الكميات الكبيرة من النفط او للاشتراك في الشئون العالمية ذات الاهمية والاعتبار . هذه هي الصورة التي نقشتها وسائل الاعلام الغربية في اذهان الامريكيين وقالبها الاصلي تلك الصورة التي نقلها المستشرق مستغلا منصبه الاحتكاري قبل استعمار الشرق وبعده . ثم ان هذه الصورة هي نتيجة دعاية منظومية مرتبة على جميع المستويات الاعلامية والثقافية ، فان الصور التي تنقلها اذاعات التلفزيون من الشرق الاوسط تهدف في اغلب الاحيان الى تكون فكرة عن جماهير في حالة التوتر والهستيريا بدون وجه او شخصية كما لاحظ الاستاذ سعيد ، وليس مخيم اللاجئين الفلسطينيين سوى عش ينمو فيه المرهب الفلسطيني ، وليست الجماهير الايرانية سوى مجموعات من المقاتلين المسلمين يقصدون فتح الغرب المسيحي ، فمن الطبيعي اذا ان يؤيد عدد كبير من الامريكيين سياسة تايد النظام الاسرائيلي والحرب ضد ايران دون ان يتساءل بأي حق او عذر تدخلت امريكا في ايران او القضية الفلسطينية في أول الامر .

ما يجري على اعلى المستويات الثقافية يدل على ان تاثير الاستشراق عميق وطويل الامد . نكتفي هنا بمثالين مرا ، على ما نعلم، من غير ملاحظة لا لكونهما حادثين يجوز اهمالهما بل لتعدد وتنوع امثالهما . اقامت احدى المؤسسات الشهيرة بالعاصمة الامريكية وهي Smithonian Institution, National Museum of Natural History , Washington , D . C . سنة ١٩٧٩ معرضا عن تطور الحضارة الغربية من اول التاريخ الى العصر

الحديث شمل معروضات من كافة انحاء العالم تمثــل عصورا وعهودا مختلفة ومن بينها معروضات من العهود العربية الاسلامية ولكن اذا اتجه الزائر نحو الخروج لقى أمامه لوحة كبيرة سجلت عليهــا اسماء كافــة الشعوب التي شاركت بشكل او آخر في بناء الحضارة الغربية ابتداء من السومريين والمصريين القدماء عبر الرومانيين والاغريق واليهود والخ . ولم يسجل العرب على اللوحة اطلاقا ! ان مؤسسة كهذه لايليق بها الجهل ولكنه أخف من التجاهل المنبثق من الموقف الاستشراقي السلبي المتحيز. وهكذا الامر بقاموس Websters New Internatinal DIctionary of The English Language , Springfield , Mass . 1957 . الذي ذكر فيه كل اسلوب معماري على حده من أول تاريخ الفن المعماري عبر القرون الوسطى الى الاساليب الحديثة ولم يذكر اسلوب عريق أو اسلامي ماعدا الملاحظة ان الاسلوب الاسباني فيه عناصر مغربية (مابين عام ١٤٨٠ و ١٥٧٠) وكان الحمراء أو تاج محل ، اسمان غنيان عن اي تعليق اخر ، بنيت باسلوب لايستحق الذكر والتعريف . وهكذا ... حتى في مبنى الامم المتحدة في نيويورك يتجاهل المرشد السياحي (وكان يتمتع بالجنسية الدانماركية) وجود لوحة خشبية كبيرة ، هدية المملكة المغربية نقشــت عليها آية قرآنية (يا أيها اللذين آمنوا انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وبعد احتجاج عدد من الزوار افاد بانه لا يجيد العربية لكنه اعترف بانه كان من واجبه أن يتقدم بالمعلومات العامة عــن اللوحة كما كان قد فعل بسائر المعروضات والهدايا في المبنى . وقام مرشد سياحي اخر في نفس المكان بشرح اللغات المستعملة في هيئة الامم المتحدة وقال ان اللغة العربية لا تعتبر لغة عالمية تماما بل انهاعبارة عن لغة اضافية وبعد استفسار لدى مرشد سياحي اخر تبين أن ذلك غير صحيح وان اللغة العربية تعتبر لغة عالمية .

ولعل اللغة العربية نفسها اخصب حقل للدعاية المعادية نظرا لدورها في التاريخ والحضارة الانسانية ومكانتها عند العرب والمسلمين وفي نطاق حديثنا عنها نذكر بعض ما كتبه الاستاذ سعيد في هذا الموضوع موضحا موقف الاستشراق من اللغة العربية قال انه من ضمن ما كان يتعلم طلاب

كلية كولومبيا سنة ١٩٧٥ أن نصف الكلمات الموجودة في اللغة العربية تتعلق بالعنف ومن هنا تكون اللغة العربية ايديولوجية خطيرة وذكر ايضا الاستاذ سعيد مقالة بقلم E . Shouby ،وهو عربي، تحت عنوان ((تأثير اللغة العربية على نفسية العرب)) (باللغة الانكليزية) يتكلم صاحبها عن تأثير اللغة العربية السيىء على العقلية العربية ويتناول الموضوع بطريقة يفهم منها ان العرب اصيبوا بمرض خطير وهو لغتهم وذلك كله دون أن يراجع مرجعا عربيا واحدا حتى يوضح بمثال كيف يحصل هذا التأثير ولا عجب حيث أن صاحب المقالة عالم النفس لا علاقة له بعلم اللغة أو الادب والعجيب هو ان المقالة اثارت اهتماما في بعض الدوائر الثقافية واصبحت مرجعا مهما مما يدل على جو ثقافي معين (الاستشراق ص ٢٨٧ و ٢٨٩ و ٣٦١) ٠

ومن تلك الآراء التي تدور في بعض الدوائر الاستشراقية وغير الاستشراقية ان اللغة العربية الفصحى تقف عقبة في طريق تقدم وتطور العالم العربي ٠ فمن المستحسن حسب هذا الراي تبديلها تدريجيا باللغات العامية حيث تتلاءم والمقتضيات الديناميكية للحياة الحديثة وتصبح اللغة العربية بذلك لغة كلاسيكية ميتة مثل اللاتينية ٠ وذلك كله بعد ان احتفظ بها العرب خلال فترات تاريخية خطيرة وتمسكوا بهذه السابقة الحضارية الخاصة بهم ، ولكنها في نفس الوقت ملك وثروة من ثروات الحضارة البشرية كلها ، وبعد ان وصلوا بها الى فترة تفسح فيها امامهم فرص التعليم والتثقيف مرة اخرى والتي تلعب فيها اللغة العربية دورا لا يقدر ٠ هذا ويلاحظ ان نفس تلك الدوائر التي تنادي بالغاء اللغة الفصحى هي التي تتكلم عن التأثير السيىء للغة العربية على نفسية وطريقة تفكير من يستعملها (لانه يجب عليه ان يبقى ويدور داخل صيغة او تركيبات لغوية لها مفهوم سيبقى مؤثر) فاذا كان هذا الكلام سليما نتساءل بأي منطق يكون تأثير الصورة أفضل من تأثير الاصل خاصة وان الاصل ، وهو اللغة العربية الفصحى ، قد اثبت ما فيه من الرقة والامكانيات اللامتناهية للتطور الحيوي الدائم لسد احتياجات ومتطلبات

الظروف العصرية المتغيرة . ثم لا يخفى ما في مثل هذه الافكار من الخطر لشعور الوحدة العربية والوعي بها في الجماهير العربية أينما وجدت حيث أن اللغة العربية الفصحى من أهم واقوى عناصرها . ومن ناحية اخرى تاتي هذه الشبهة في مكان وفعالية اللغة العربية الفصحى في وقت تتحسن فيه الاتصالات والمواصلات يوما بعد يوم بين دول العالم والدول العربية كذلك ويزول تدريجيا السبب الاساسي لوجود الدارجات في لغة واحدة وهو عدم وجود الاتصالات والمواصلات واذا اضفنا الى ذلك عامل التثقيف والتعليم المتزايد في البلدان العربية وارتفاع الاحتياجات اللغوية بارتفاع الاحتياجات الثقافية نجد ان اللغة العربية الفصحى ليست عائقا في طريق التقدم بل جزء مكمل له .

الى هنا حاولنا أن نلقي بعض الضوء على ما نعتبره من نتائج فصل الاستشراق ولكن تحديد مسؤولية الاستشراق لا يصلح ان يكون غرضا في نفسه وقد بدأنا حديثنا بقول ان العرب في حاجة الى شيء جديد يوصله الى الادراك الحقيقي لما يجري في الشرق الاوسط وان الاستشراق على ما هو عليه الآن عاجز عن ان يقوم بمهمته ويكون وسيلة التقارب والتفاهم بدلا أن يكون أداة لقوى هدفها التسلط والاستغلال . ومن الواضح أن هذا الشيء الجديد لا يأتي ببساطة او بسهولة فان أي تغيير في عقلية الاستشراق يقتضي وجود قاعدة ثقافية مؤيدة تلقائيا في ظروف اجتماعية وسياسية مناسبة وقد أشرنا الى اهمية كتاب « الاستشراق » لا لقيمته الذاتية فحسب بل لما يتضمنه من المدلولات . فان كتابا كهذا كان امرا لا يتوقع قبل سنوات قليلة والدليل على ذلك ان « الاستشراق » فاجا العامة من القراء والمتخصصين على حد سواء . والحقيقة ان أغلبية النقاد الغربيين أشاروا الى ايجابية كتاب « الاستشراق » واهميته لمستقبل العلاقات بين الغرب والشرق ، مما يؤكد ويقوي الانطباع ان هناك تيارا ثقافيا جديدا على وشك الظهور في الغرب يرفض تقليد الجزميات السلبية الاستشراقية ويحاول ان ينظر في موضوع الشرق والاستشراق نظرة علمية واقعية .

وما هي مسؤولية الشرق والشرقيين وما دورهم في ابطال ومحو تلك الانطباعة الذهنية التي يحملها الغرب عنهم ؟ قد تكلم الاستاذ سعيد عن هذا الموضوع ، مختصرا للاسف ، وقال ان اكبر انتصار الاستشراق هو « استشراق الشرق » بمعنى انه نجح في اقناع عــدد من الشرقيين ان هويتهم الحقيقية هي التي تظهر في الكتب والافلام الغربية فيمضون يلعبون هذا الدور الذي خصصه لهم الاستشراق بوعي او بدونه . ولا شك هذه الظاهرة لا زالت موجودة ، مع فقدان شعبيتها بين الاجيال النامية في رأينـا ، ولا شك ان التقليـد الاعمى لا يثير الاحترام . فهـل يكون « الاستغراب » ردا صحيحا على الاستشراق ؟ لا ، لان الاستشراق قد اثبت فشل أساليب التفوق والاستعلاء على صعيد العلاقات الانسانية أولا ، وان الاقتصادية والاقصاء لا تتميز به الطبيعة الشرقية ثانيا ، الامر الذي يعترف به اشد النقاد الغربيين لانه حقيقة تاريخية ثابتة لا يمكن نفيها . ان هذا العامل النفسي الذي ورثه الشرق من أعماق الحضارات السابقة ، والذي يسمى بالتسامح الشرقي ، مع عدم وفاء التعبير بالمراد ، قد يكون ضعفا اذا لم يصحب بقوة التقييم والانتقاء والوعي الاجتماعي والسياسي ولكنه أكثر ما يكون قوة معنوية تفتح مجالات التعارف والتقارب بين الشعوب . عليه فان تخلي بعض الشرقيين عن استشراقيتهم لا يعني رفض انجازات الغرب والرجوع الى العصور الوسطى ، كما يقول البعض، لان تلك الانجازات ليست الا مواصلة لما أنجزه الشرق ، انما يعني اتباع التطورات واللاحقة والمشاركة في التقدم العالمي مع التمسك بالقيم الاصلية والرجوع اليها خاصة في الازمات التي يبحث فيها المجتمع عن اتجاهات وحلول جديدة وذلك لضمان الاستقلال بمعناه الصحيح والمكان اللائق بين شعوب العالم .